عظماء قهروا اليأس

قاسم أمين

يوسف الحمادى



عظماء قهروا اليأس



قاسم أمين

رائد الإصلاح الاجتماعى

تأليف

يوسف الحمادى

مستشار اللغة العربية الأسبق

بجمهورية مصر العربية

الناشر

مكتبة مصر بالفجالة

سعيد جودة السحار وشركاه

تقديـــم

إلى جيلنا الناشئ

إلى أبناء اليوم ورواد الغد .

إلى طلاب المرحلة الأساسية وغيرهم ..

إليهم جميعا وإلى كل قارئ .

إليهم نقدم هذه السلسة من حياة بعض عظمائنا الذين قهروا اليأس ، وبددوا ظلامه ، ونجحوا بإرادتهم القوية الجبارة أن يشقوا طريقهم بين الأشواك والصخور ، وأن يشاركوا بجهودهم الواعية البناءة فى صنع حياتنا الحديثة التى ننعم بما فيها من حرية وعزة وكرامة .

وتشمل هذه السلسلة حياة :

محمود سامى البارودى ، أحمد عرابى ، على مبارك ، مصطفى كامل ، سعد زغلول ، محمد حافظ إبراهيم ، عباس محمود العقاد ، طه حسين وغيرهم .

وستظهر إن شاء الله سلاسل تالية حول عدد آخر من البطولات والأبطال الذين خلدهم تاريخنا ، وكان لهم أثر بارز فيه .

ومن حق هؤلاء العظماء أن نفتح عيون أبنائنا على صفحات من حياتهم ، تنير الطريق ، وتحيى الأمل ، وتبنى النفوس ، وتنشّئ الجيل الجديد على حب البلاد ، والوفاء لها ، والعمل لخيرها فى حماسة وإيمان مخلص صادق .

المؤلف

الفصل الأول

أسـرة قـاسم أمين

قصـة أبيـه :

والدهُ مُحمد أمين .

وهذا الوالدُ من أسرةٍ تركية . كانت تقيمُ بالعراقِ ، وكان العراقُ في ذلك الوقت ـــ ولاية من ولاياتِ الخلافةِ العثمانيّة ، وعاصمتُها « الآستانة » في تركيا . وفي العراقِ ، وفي « السليمانيةِ »[1] عاش مُحمد أمين والدُ قاسم أمينٍ مع أسرتِه ، وهو في زهوٍ[2] بمكانةِ هذه الأسرة ، ورضَا الخليفةِ العثمانيِّ عنها ؛ فقد عَهِد إلى أحدِ أفرادِها بالولايةِ على « السليمانيّةِ » ، وكان هذا الوالي ابنَ عمٍّ محمد أمين .

تقلب الأحداث بالأب :

ولكنَّ الأحداثَ تقلبت بمحمدٍ أمين ، ولَعِبت به منذُ طفولتِه ؛ فقد مات أبواه وهو طفلٌ ، وأحسَّ مرارة اليُتْم وهو صغيرٌ . . . ولكنّ جَدَّتَه أدركته[3] ، فقامت بأمْرِه ، وعاونَها في ذلك خالُه ، وكانت هذِهِ الرِّعايةُ أقْوى ما خفّف مصابَه ، وأشدَّ ما أَزَاح الهمَّ عنه .

ولم تقف الأحداثُ بالصبيِّ محمد أمين عندَ هذا الحدِّ ؛ فقد غَضِبَ الخليفة على والى « السليمانيَّةِ » ، فعَزله عنها ، وأخرَجَ أسرته منها ،

---

(١) السليمانية : إقليم من أقاليم العراق (٢) في زهو : في فخر وإعجاب

(٣) أدركته : لحقته

وأعادَها إلى « الآستانةِ » . . . ومن بين من عادوا إليها محمدُ أمين . وكان - إذ ذاك[1] - في سنِّ الخامسةَ عشرَةَ من عمرِه .

هجرته إلى مصر :

ودارَ الصبيُّ ببصرِه في « الآستانة » ، فتألَّم لبعدِه عن « السليمانية » ، ولعزلِ قريبه عن ولايتِها ، ولسُخْطِ الخليفةِ على أسرتِه . ثم لم تنته الأحداثُ التى تقلَّبَت به عند هذا الحدِّ أيضًا ؛ فقد نَشِب[2] الخلافُ بينه وبين قريبِه الذى عُزِل عن ولايتِه ؛ وبذلك ضاقتْ « الآستانةُ » به ، وكَرِهَ العيشَ فيها ، كما كَرِه الصدامَ بينه وبين قريبِه ، الذى كان وَاليًا ثم عُزِل .

وفكَّر الفتى وفكَّر ! وأطال التفكير والتقدير !

وأخيرًا هداه تفْكيره أن يهجُرَ « الآستانة » ، ويرتحلَ عنها ، وصمَّمَ على فكرتِه ، ولكنْ إلى أين يرتَحل ؟ ! وإلى أيِّ مكان يهاجر ؟! لقَدْ كان يسمَعُ عن مِصرَ أنّها بلدُ الخِصبِ والرَّخاء . وبلدُ الأمنِ والأمانِ ، وأن النازِلَ بها يجدُ فيها ما يُرضِيه ، ويشفِي جراحَه وآلامَه !! فصمَّم أن يرحَل إليْها .

ولم يُحَدِّث الفَتى أحدًا بِنيَّتِه .

ولم يخبر أفرادَ أسرتِه بما عزَمَ عليهِ ، وذاتَ يومٍ خرجَ إلى الشاطِئ ، وراقبَ السفُنَ المسافرةَ من « الآستانةِ » إلى مصرَ ، واستقلَّ[3] واحدةً منها . نقلتهُ إلى هذا البلدِ الطيِّب المضيافِ[4]

---

(١) إذ ذاك : فى ذلك الوقت .
(٢) نشب : نشأ وظهر .
(٣) استقلَّ : ركب .
(٤) المضياف : الذى يحسن لقاءَ الضيفِ ويكرمُه

رعاية الأتراك للمهاجر الوافد :

ولقِيه بعضُ الأتراكِ فى مصرَ .

ورحّبُوا بهِ حِين عرفُوا قصَّتَه ، وقدّرُوا له عزيمتَه ، وعلُوَّ نفسِه ، وتمسُّكَه برأيِه ، وهو ما يزالُ فتىً يخطُو نحوَ الشباب .

وبلغَ من إعجابهم بعزيمتِه ، وعطفِهم عليهِ — أنّهم تكفَّلُوا بهِ[١] ، وبمطالِبِ حياتِه ، وأنهم أدخلُوه المدرسةَ الحَربيّةَ ، وتعهَّدُوهُ بها ، وما زالوا يتعهدونَه ، حتى تخرَّج ، وانتظمَ فى السلكِ العسكرىِّ ، وترقَّى ، وكانَت هذِهِ المدرسةُ أملَ أكثرِ الأتراكِ من أمثالِه فى ذلِك العهدِ .

ومرّت سنواتٌ ترقَّى فيها مُحمد أمين ، وتنقّل مِن رُتبةٍ عسكريّةٍ إلى رُتبةٍ أعلَى ، ومن منصِبٍ إلى منصبٍ أرْفعَ ، ومازَالَ يتدرَّجُ فى الترقيةِ حتى بلغ رتبةِ « الأميرالاى » ، وهى من الرتبِ العسكريّة المرموقَة[٢] فى الجيش .

وتولّى مُحمد أمين هذا المنصبَ فى « طُرة »[٣] ، وبين الفرِيقِ العسكرىّ المقيم بِها . . وبذلكَ أحسَّ الرجلُ أنّ الأيامَ التى لعِبت به فَجرَّعته الآلام[٤] عادت لتحنُوَ عليهِ ، وُتشفِقَ به .

---

(١) تكفلوا به : تحملوا نفقات معيشته .

(٢) المرموقة : التى يتطلع الناس إليها ، ويتمنون بلوغها .

(٣) طرة : ضاحية معروفة من ضواحى القاهرة ، تقع على شاطئ النيل على مقربة منها .

(٤) جرعته الآلام : أصابته بواحدة بعد واحدة .

الفصل الثانى

مولد قاسم أمين ونشأته

مـولـده :

كان « الأميرالاى » مُحمد أمين كما ذكَرْنا . يتولَّـى شئون منصبـهِ فى « طرة » ، وكان يقيم بها هو وزوجتُه ، وكلاهما من الأتراك .

وبين هَذَين الأبوَين أهلَّت على الدُّنيـا طلعـةُ طفـلٍ كـان كبـيرَ الـرأسِ ، باسِمَ الثغر ، مفتوحَ الوجهِ ، وَسيمَ الطلعةِ ، منسقَ[1] التقاسـيمِ ، غزيـرَ الشعر ، له عينان متألِّقتان[2] ، وله حاجبان يزينـان عينيـه ؛ وفمُـه أميـلُ إلى الاتساع ، ومُحيَّـاه[3] يميـلُ إلى العـرضِ أكـثرَ مما يميـل إلى الطـولِ ، وكل ملامِحه تجتذبُ النّظرَ إليها بأشعتِها النفاذَة ، وتدفعُـه إلى أن يُكـثر من التردُّد فيها ، وعدمِ التحوُّلِ عنها أو الانصرافِ إلى غيرِها .

وَحملَ الأبُ طفلَه ، فسُرَّ به .

وحملت الأمُّ طفلَها ، فسعِدَت بطلعته ، وكـان كـلٌّ منهمـا فـى أشـدِّ الشوقِ إليه ؛ ليملأَ حياتَهما ، ويشيعَ البهجةَ فيها ، وليغمرَها بالسـعَادة بعدَ القسوةِ التى عانى فيها الأبُ الشدائدَ ، وتَحمّلَ المآسِيَ[4] والآلام .

ولعلَّ الأبَّ والأمَّ أطالا النظرِ إليهِ ، وردَّدَا البصرَ فى وجهِه ، فوجَدا فيـه ، وفـى نظراتِـه وتقاطيعـه طفـلاً غـيرَ عـادىٍّ ، وأحسَّـا فيــه ذكـاءً متوقِّدًا[5] ، ورُوحًا متوثبة[6] ، وحيويـةً تحدِّثُ عـن مستقبلٍ لـه شأنه ، فحمِدَا اللّه ، وملأَ قلبهما الأملُ به ، وبمستقبلِه ، وحياتِه .

---

[1] منسق : متلائم . [2] متألقتان : لامعتان . [3] محياه : وجهه .

[4] المآسى : جمع مأساة ، الأحداث الحزينة . [5] متوقدًا : شديدًا حادًّا .

[6] متوثبة : فيها حيوية وتفتح للحياة .

كان هذا الطفلُ هو « قاسم » الذى وُلِدَ فى أولِ ديسمبر من سنةِ ١٨٦٣ ، وعُرِفَ فى تاريخِ الفكرِ والأدبِ والفنِّ والاجتماعِ باسم « قاسم أمين » ، وعنه يتحدث هذا الكتيِّبُ .

تنقل والد الطفل به وتنشئته :

تنقلَ الأبُ بأسرتِه وطِفله بين أكثرَ من موقع ، فكان فى الإسكَندريّةِ ، وفيها دخل الطفلُ مدرسةَ الإسكَنْدَرية الابتدائِيّةِ ، وكان فى القاهرة ، وفِيها دخلَ المدرسة التجهيزيّة الثانويّةَ ، أو المدرسةَ التى عُرِفَتْ فيما بعدُ باسم الخديويّة الثانويةِ .

وهنا افترقَ الطّريقُ بينَه وبين أبيه . لم يدخل المدرسة الحربيَّة ؛ فيكونَ رجلَ حربٍ كأبيهِ ، ولم يسلُك الطريقَ التى كان يسلكُها أكثرُ الأتراك على عهدهِ .

ويتساءَل الناسُ فى دَهشةٍ : لماذا لم يدخلِ الشابُّ قاسمُ أمين المدرسةَ الحربيةَ ؛ كما دخلَها أبُوه ؟! ولماذا لَمْ يَسْلك الطَّريقَ إلى الأوسِمةِ ، والرتبِ ، والأمرِ والنهى ؛ والضبطِ والرَّبطِ ؟! والدراسةُ العسكريةُ هى التى تهيئُ له أن ينتظمَ بالجيش ، وأن يكونَ يومًا ما بينَ قادتِهِ وبينَ كبارِ رجالهِ !!

انتظامه فى مدرسة الحقوق :

لقَدْ كانت كلُّ الدلائِل[1] تشيرُ إلى أنّه سيسْلكُ مسلكَ أبيه فى الدّراسَة ، وكان كلُّ من حولَه يتوقّعون أن يحمِلَ فى قَلبه ومشاعرِه الميلَ الحربيَّ ، فأبوه رجلُ حربٍ ، والبيئَةُ التى نشأَ قاسم فى أحضانِها بيئةٌ عسكريةٌ ، وأكثرُ أصدقاء أبيه من الأتراك الذين يحملون هذه

(١) الدلائل : جمع دلالة ، وهى العلامة التى تدل على شئ ما .

النزعةَ(١) ويفَضّلون حياةَ الجَيش ومناصبَه على غيرها .

ولكنّ قاسمًا أخلفَ ظنونَهم ! ولعله كذلك أخلفَ ظنَّ أبيه وظنَّ أمه !

لقد أنهى دراستَه الثانويـةَ ، وأدارَ ظهـرَه إلى المدرسـةِ الحربيَّـة ، فلـم يُفكّرْ فيها ، ولم يتّجه نحوها ، ولم يُظهِرْ أيَّ ميلٍ إليها ، ولم يتعلّقْ أيَّ تعلّقٍ بها !! وكان فـى ذلـكَ صـورةً مختلفـةً عـن صـورةِ أبيـه ، وطبيعـةً مغايرةً للطبيعةِ العسكريّة كلَّ المغايرة !

لم يكن « قاسم » حادّ الطبع(٢) كرجل الحرب ، وإنمـا كـانَ باسـمًا هادئـا هدوءَ رجل الفِكرِ والأدبِ والفن . لم يكن متوثّبًا للهجومِ والغلبةِ ، وإنما كان وَدِيعًا(٣) بعيدًا عن المغالَبةِ ، والصدامِ ، وفرض سلطانِه على غيره .

لم يكن فظًّا(٤) غليظَ القلب ؛ يأنَسُ إلى السـيفِ ، ويركِـنُ إلى المِدفَـعِ ، ويبتَسمُ للنيران والدماءِ التـى يبتسـمُ لهـا رجـالُ الحـرب ، وهـى تحـرقُ وتدمِّر ، وإنما كان رجلَ مسالمةٍ وسَلام ، بعيدًا غايـةَ البعـدِ عـن العـداوةِ والخصومةِ ، وكان رَقيقَ القلبِ ، رحِيمَ النفسِ ، تستهويهِ(٥) مودَّةُ الناسِ ، وتجتذبُه صداقاتُهم ، والمحبةُ بينَهم .

لم يكن جامدَ الوجه صَفيقا ، فاترَ الإحساسِ بليدًا ، وإنمـا كـان حييًّـا ، خجولاً ، مُرهَفَ الحِسِّ ينفر من الزّجِّ بنفسِـه فـى غِمـار(٦) الجماعـاتِ المتنـافِرةِ المتخاصمـةِ . ولـه مـع ذلـك جرأتـه وشـجاعتُه وحرصُـه علـى الدخولِ فى قلب المجتمعاتِ المثقفةِ والعيش بينها ، والعمل فيها .

وكان الجوابُ عن ميولِ قاسم أمين فى طبيعةِ « قاسم أمين » !!

لم يُخلَقْ ليكونَ رجلَ حرب ، وإنما خُلـقَ ليكـون رجُـل حـقٍّ ، ولـم ينشأ ليكون عُدوانيًا ، وإنّما نشأ ليكونَ قانونيًا عادلاً .

---

(١) هذه النزعة : الرغبة والميل (٢) حاد الطبع : مندفعا (٣) وديعًا : هادئا .
(٤) فظا : خشنا جافى الطبع . (٥) تستهويه : تستميله وتجتذبه . (٦) غمار : وسط .

ولعلها أوّل مرةٍ ينحنى فيها والدُ قاسمٍ أمينٍ لرغبةِ ابنِه .

لقد تَركَه لحريتِهِ ورغبتِهِ ، فدخلَ قاسمٌ مدرسةَ الحقوق والإدارة فى مصر ، وكانت هذِهِ المدرسةُ ملاذ[1] النابهين وذوِى الطمُوح[2] ، والذين يحرِصُون على أن يكونَ لهم شأنٌ فى المجتمع . . . . ودخلها قاسم أمين فى سن مبكّرة ، وفى الثامنةَ عشرةَ من عمرِه ، وفى أكتوبر من سنة ١٨٨١ تخرّج فيها ، وظفِر بشهادتِها .

بعثته إلى فرنسا :

كان من البارزينَ المتفوقين ، فأُرسلَ فى بعثةٍ إلى فرنسا . لحقَ فيها بجامعةِ « مونبلييه » ، وأتمّ الدراسةَ بها فى مقدرةٍ وبراعةٍ ، وعادَ إلى وطنِه مصرَ سنةَ ١٨٨٥ ، وسنّهُ اثنتان وعشْرون سنة .

عودته واتجاهه إلى الإصْلاح الاجْتِماعي :

لم تكن عودتُه إلى مصرَ عودةَ فرد عاديٍّ ، وإنما كانت عودةَ رائد[3] من الرُّوَّاد المعدودين ، ولم يكن هذا الرائدُ بطلَ حربٍ أو نضالٍ[4] فى المعاركِ ، وإنما كان بطلاً مجاهدًا فى ميادين العدالةِ والحقوقِ ....

وشيئًا فشيئًا اشتهر « قاسم أمين » ، وذاع صيتُه ، وانضمّ إلى ركبِ الزعماء الأوائِل ، وكان له كفاحُه بينهم ، وخَطُّه المتفرِّدُ المميِّزُ بين الخطوط التى سلكوها ، كما كان له أثرهُ فى نهضة مصر ، وفى إنقاذِها من وهدتها[5] السحيقة[6] التى تردَّدت[7] فيها ، وظلت بها أزمانًا غير قصيرة .

---

(١) ملاذ : ملجأ .   (٢) الطموح : الرغبة فى التفوق .
(٣) رائد : الرائد من يتقدم قومه ، ويبحث لهم عن أحسن طريق يسلكونها . (٤) نضال : جهاد
(٥) وهدتها : الوهدة الحفرة الهابطة .   (٦) السحيقة : البعيدة .   (٧) تردَّت : وقعت



الفصل الثالث

ثقافته وحياته العملية

ثقافته واتساع نواحيها :

كانت بعثةُ « قاسم أمين » إلى فرنسا في دراسةِ القانون ، وكان المظنونُ أنه سيعيشُ كغيره ؛ محاميا ، ورجَلَ عدالةِ ، وينتهي ، وتنتهي ثقافتهُ عند هذا الحّد . ولكنه كانَ شيئًا آخر !! .

عادَ من فرنسا ، وله ثقافةٌ واسعةٌ الآفاق [1] متعددةُ الجوانِب ، مديدةُ الأعماق والأبعادَ ؛ فقد كانت له ثقافتهُ في القانون ، وفي غير القانون : في اللغات والأديان ، وفي الأدبِ الفَرَنسي والعربي ، وفي التاريخِ الفرنسيِّ ، وفي الاجتماع الغربيِّ والشرقي ، وفي سائر الفنون ، ومختلِفِ المعارف . قيل عنه :

« كان يرى أن الدراسةَ يجبُ أن تكونَ حرَّةً ؛ لذلك لم يقتصرْ على مناهجِ الدراسةِ كما يقتصرُ غيره ، وإنما أضافَ إلى ذلك بحُوثَهُ الشخصيةَ ، وقد تناولت بحوثه الشخصيةُ : القانُون ، والشريعةَ ، والتاريخَ ، والاجتماعَ ، والأدب ؛ حتى إذا ما أزفت[2] سنو دراستِه على الانتهاءِ جدّ في الدراسة ، فكانَ في طليعَةِ الحاصلين على إجازةِ الحقُوق .

هكذا كانت طبيعتُه . كانت متحررةً في الثقافةِ ، فأنف[3] أن يعيشَ أسير المناهج الدراسية كما يعيشُ غيرُه ، وترفّعَ عن أن يتقيّد بقيودها الجامدة المحدودة ، كما يتقيدُ سواه ، ولعلَّ ذلِكَ لآمالٍ كانت تتملكهُ وتُحدِّثُ بها نفسه .

---

(١) واسعة الآفاق : واسعة الميادين والنواحي . جمع آفق .

(٢) أزفت : قربت . (٣) أنف : لم يرض .

تكوين نفسه وتسليحها بأسلحة الريادة والتفوق :

كان لهذه الانطلاقة المتحررةِ الطَّمُوحِ[١] أثرُها فى حياتِه ومكانتِه ؛ فقد ساعدته على أن يشقَّ طريقَه إلى الريادةِ الاجتماعيّة ، وربَّما حدَّثته نفسُه أن يكون من بين القادةِ والزعماءِ فى مصر .. ؛ ومن ثَمَّ كان صبره وحماسته وبحوثه ، وكانت أمانيُّه وآمالُه وتطلعاته التى مَضَت فى طريقِها لتصبحَ حقائِقَ واقعةً ، ومظاهرَ واضحةً ملموسةً .

ولكنَّ قاسمَ أمين لم يعتمدْ على أحدٍ ، ولم يتسلق على أكتاف الناس ، ولم يقفز قفزَاتٍ مفاجئة .

وإنما أضافَ إلى آمالِه وأمانيه حماسةَ المتمنّى ، ودراسةَ الراغِب ، وجدَّ الآملِ ، وثقافَة المفكّرِ الأديب ، أو الأديبِ المفكّرِ ، وروحَ المصلِح الاجتماعىّ الحريصِ على إحياءِ وطنِه ، وبعثِه من جمودِه وركودِه[٢] .

كذلك كاَن قاسم ! لم يكن من الذين يعيشونَ على الخيالِ ، أو يستغرِقونَ[٣] فى الأحلامِ ، أويحبُّون أن يصعَدوا إلَى الرقىِّ بلا عملٍ ، ولا جهدٍ ولا كفاحٍ . وإنما كان واقعيًّا فى حياتِه : يمضى عن ثقةٍ ، ويصعَد عن مقدرةٍ ، ويعتمدُ على جهدِه فى كلّ خطواتِه . يتعَبُ ليجنىَ الثمرَ ، ويبذلُ ما يستطيعُ ليحقق الأمل .

حياته العملية :

بهذه الروحِ واجه حياتَه العملية .

عين مساعدًا للنيابةِ المختلطة سنة ١٨٨٥ ؛ وذلك لتمكّنِه من اللغةِ الفَرنسية[٤] إلى جانب تمكّنِه من الدراسةِ للقانونِ المصرىِّ والفرنسىِّ ،

---

(١) الطموح : المتطلقة إلى الغايات البعيدة . (٢) ركوده : توقفه وبعده عن الحركة .

(٣) يستغرقون فى الأحلام : يعيشون فيها وفى أعماقها . (٤) تمكنه من اللغة الفرنسية : إتقانه لها .

وكان مثلُ هذا المنصبِ[1] وقفًا على الأجانبِ مغلَقًا في وجـوه المصريـين ، ولكن طريقَه قد فتح لقاسمِ أمين ، وفُتِح له قسمُ قضايا الحكومة ، كمـا فتح لأمثالهِ من الروادِ أشباهِ فتحـي زغلـول ، ومصطفـي فتحـي . ومـن إليهما . وترقى قاسم في سلكِ النيابـةِ . وكـانت خطواتـه فـي الـترقّي سريعةً ، وعن جدارةٍ[2] حقيقيةٍ ، وامتيازٍ بارزٍ بيِّنٍ واضح .

وقفزَت به ترقيتهُ إلى رياسةِ النيابة ، فكان رئيسًـا لنيابـة بنـي سـويف سنة ١٨٨٩ ، وبعد سنتين نقل إلى نيابةِ طنطا ؛ ليكون رئيسًا لها .

وطنيته وروح العدالة في نفسه :

وفي بني سويف قامَ قاسـمُ أمـين بعمـلٍ جليـل . كـانَ خـيرَ دليـل علـى شخصيته ، وأقوى معبِّرٍ عن عدَالته ... كان لسانَ الحكومةِ ، والمدافـعَ عنهـا ، وكان المنتظَرُ منه أن يلتزِمَ جانبَ الانحياز لها : أخطأتْ أم أصابَت ، أحسـنَت أم أساءَت ، ولكن عدالتَه كسَرت هذه القـاعدةَ ، وخطُّـه المستقيم حطَّـم هذا العُرفَ الظالمَ ، وعصفَ به .

قيل عنه : « كان أولُ عملٍ قام به حينَ وُلِّيَ هذا المنصـبَ أنـه أطلـقَ سراحَ كثيرٍ من المتهمين الذين سجنتْهم الإدارةُ عدوانًا[3] وظلمًا »

وقد يكون من بين هؤلاءِ من رفعَ صوتَه في وجه الفساد الحكومـي ، أو انتقدَ ما تقومُ به الحكومةُ من قهـرٍ للشّـعب ، أو اسـتغلال لأموالـهِ ، أو استعلاءِ على سلطانهِ ، وقد يكونُ منهمُ من رَفعَ رأسَه بحقٍّ ، أو بـاحَ بسرٍّ ترجُو الإدارة أن يظلَّ حبيسًا مكتومًا عن الشعب ، بعيدًا عن سـمعِه ولسانِه ، ممنوعًا من التناوُلَ والتداوُلَ ، والأخذِ والردِّ .

(١) المنصب : الوظيفة . (٢) جدارة : استحقاق .

(٣) عدوانا : ظلما واعتداء على حقوقهم .

وفى طنطا كان قاسمُ أمين نِعْمَ المعبِّرُ عن الشعب والمدافعُ عنه ، وكانَ ملاذَ الحائرِ والشريد والمظلوم ، والمغلوب على أمره ... قبل أن يكونَ سندَ الحكومة فى الحقّ والباطل .

عرف عبد اللّهِ النديمُ خطيبُ الثورةِ العرابية ، وأقوى المجاهدين مع أحمد عرابى . عرف أن قاسمَ أمين نُقِلَ إلى رياسةِ النيابة بطنطا .

وكان « النديمُ » قَد حُكِمَ عليه بالإعدامِ لوقوفِه إلى جانب « عرابى » ، واختفى منذ سنةِ ١٨٨٢ بعد إخفاق الثورةِ العرابية [١] ، وقد ساعدَه أبناءُ مديرية الغربيةِ على الاختفاءِ حتى سنة ١٩٨١ . وهى السنة التى نُقلَ فيها قاسمُ أمين إلى طنطا .

لم يخف النديم ، وإنما أَنِس [٢] إلى وطنية قاسم أمين ، فألقى بنفسِه بين يديهِ ، وتركَ له أن يتصرّف فى أمرِه كما يشاء .

وقدَّر قاسمُ أمين بوطنيتِه جلالَ الموقف ، وأحسَّ أن واجبه — فى رعايتِه للحقِّ والعدالةِ والنضالِ فى سبيلِ مصر — يقضِى عليه أن يقدِّمَ شيئًا لهذا الرجلِ العظيم : عبد اللّهِ النديم .

انتفض قاسمُ أمين -! وأخذته الدهشةُ ! وهبَّ من مجلسه [٣] ، واستقبلَ الرجلَ خيرَ استقبالٍ ، وهو يعرفُ أن ذلك قد يُعرِّضُه لسخط الإدارةِ ، وقد يضرُّ بمكانتِه ووظيفتِه . ولم يأبه [٤] قاسم وأصر [٥] أن يعملَ للرجلِ شيئا !

وفى الحال صَاحبَ عبدَ اللّهِ النديَم ، وسافر به إلى القاهرةِ ، والتقى برئيس

(١) إخفاق الثورة العربية : عدم نجاحها .
(٢) أنس : أطمأن .
(٣) هب من مجلسه : انتفض واقفا .
(٤) لم يأبه : لم يهتم .
(٥) أصر : صمم



الوزارةِ رياض باشا ، وما زال يسعَى لديه ، حتى كُتِبَ له التوفيقُ ، وصدر العفوُ عن الرجل الذى يعيش وهو محكومٌ عليه بالموت .

صعوده في سلم الرقي والوظيفي :

واستمر قاسمُ أمين يترقَّى فى سلكِ القضاء ، وشَقَّ طريقَه شيئًا فشيئًا إلى الريادة والزعامة . تحدَّثَ عنه أحدُ من تناولُوا سيرتَه . قال :

فى ٢٦ من يونيه سنة ١٩٩٢ عُيّن قاسمُ أمين ، وسعد زغلول ، ويحيى إبراهيم نوابَ قضاةٍ بمحكمةِ الاستئناف بأمرٍ واحدٍ ، ولم يَحُلْ حولان حتى كان قاسم وسعد مستشارين بمحكمة الاستئناف ، وحتى ارتفعَ مرتبُ كلٍّ منهما إلى ألف جنيه فى السنة[1] .

وهكذا ترى أن قاسَم أمين بلغ فى الحادية والثلاثين مرتبة قضائيةً عاليةً : لا يبلغْها إلا الأقلونَ من رجالِ القضاءِ وفى سنِّ الخمسين .

ولعلّك تدرِكُ ـ بعد ذلك كلّه ـ ذكاءَ قاسمِ أمين ، ونَدْرةَ وقدراتِه ، وبراعةَ مواهبه .

لقد كان رجلاً عظيمًا .

له عبقريةُ الفكر[2] ، وعبقريةُ الملاحظة ، وعبقريةُ التخطيط ، وعبقريةُ التنفيذ ، وله روح الوطني المخلص الذى يعيش لمنصبه ، كما يعيش للناس .

---

(١) ارتفع إلى ألف جنيه فى السنة : كان ذلك شيئا نادرا .

(٢) عبقرية الفكر : براعته الفريدة النادرة .

الفصل الرابع
وطنية قاسم أمين

روحه المصرية الصادقة :

قاسمُ أمينٍ تركيٌّ الأصلِ والجنس . ولكنه فى وطنيته مصريٌّ كأبناءِ مصر العاملين المخلصين ؛ فقد وُلِدَ بضاحيةِ « طرة » ، وبها قضى طفولته الأولَى ، ولعلّ والِدَه . « الأميرالاى » محمدَ أمين ووالدتَه قد حَمَلاه ، وتمشيا به على شاطِئ النهر الخالدِ ، فاستنْشَقَ عَبيره[1] ، وتلقّى أنسامَه ، وسرحَت عيناه فى مشاهدِه الجميلةِ ، ورأى منذُ أيامِه الباكرةِ سفنَه ، ومراكبَه ، وبواخِرَه ، وشاهد حَمائمَه البيضاء ، أو زوارِقَه ذاهبةً وآيبة[2] ، وسابحة هنا وهناك .

ولعلَّ أول شَرْبةٍ له كانت من النيلِ الخالدِ . من ذِلكَ النّهرِ العَذْبِ الرَّوِىِّ[3] الذى لا ينساهُ أبدا من شرِبَ منه ، ولعلّ أول لهو له مع رفاقِ الطفولةِ الباكرة كان على شاطئِه عِنْد هذِهِ الضّاحيةِ العريقةِ[4] .

* * *

وفى مِصرَ وعلى أرضِها ، تعلَّم « قاسمُ أمين » وتلقّى دراستَه : طفلاً ، وصبيًّا ، وشابًّا ؛ فقد كان بالإسكندرية فى دراستِهِ الابتدائيةِ ، وكانت المدرسةُ التى لَحِق بها هى مدرسَة « الإسكندريّة الابتدائِيّة » ، وكانت دراستهُ الثانَويَّةُ بالقاهرةِ ، وكانت مدرستهُ هى المدرسةُ التجهيزيةُ ، وهى التى عُرِفَتْ بعدُ باسمِ المدرسة الخديويّة ، كما كانتْ دراستهُ العاليةِ بالقاهرةِ ، وفى مدرسةِ الحقوقِ والإدارةِ ، وقدِّر له أن

---

(١) عبيره : رائحته الذكية (٢) آيبة : عائدة (٣) الروى الذى يروى ماؤه من يشربه لعذوبته

(٤) العريقة : الأصيلة القديمة .

يُسافرَ إلى فرنسَا ؛ ليبْتلِيَه[١] القَدرُ بالغربةِ فترةً عن مصرَ ، وعن ملاعبهِ على أرضِها ، وعن مسارِح لهوِه[٢] وجدِّه فيها ، وصحاب طفولته بِها ، ورِفاق دراستهِ في مَدارسِها ومعاهدِهَا ، وبهذه الغربةِ ازدَاد حبُّه لمصر ، وشوقهُ إلى ذكرياتِه فيها .

ولم يُقدَّرْ لتركيتهِ شيءٌ واضحٌ من الظهور والنماء ... لم يولد في الآستانةِ ، ولم ينشأ على أرض تركيا ، ولم يتعلّم في مدارسِها ومعاهدِها ، وبهذا كانت تركيتُه تركيةً اسْميةً ليسَ لها دعائِمُ[٣] تشدُّه إليها ، وتجتذِبُه نحوَها .

ولو سُئِلَ قاسمُ أمين عن وطنِه ما تَرددَّ في أنْ يقولَ : « أنا مصرى » ولو سُئِلَ عن تركيا ، أو عن السليمانية أو الآستانة ما زاد على قوله : « كانت أسرَتى منها ، أو كانت بها » .

قاسمُ أمين إذن مصريٌّ !!

مصريٌّ وطنًا ، ونشأةً ، وحياةً ، ووظائفَ وريادة ، وزعامة .. وما إلى ذلك مما لا يفترِق فن شيءٍ عن حياةِ أى مصرىٍّ نابغٍ من أبناء مصر .

مظاهر الروح المصرية فيه :

لوطنيةِ قاسمِ أمينٍ مظاهرُ متعدّدة ، من أهمِّها المظاهرُ التالية :

أولا : أن مصرَ على عهْدِه كانتْ تمرُّ بفترةٍ من أقسى الفتراتِ التى مرّت بها ! كانت ولايةً عثمانيةً تخضعُ للخليفةِ فى تركِيا ، وعلى رأسِها والٍ من قِبَله يجمع له الأموال ، وينفّذُ له الأوامرَ ، ويقضىَ له بما يشاءُ ، وكما يشاء .

---

(١) ليبتليه : ليختبره . (٢) مسارح لهوه : أماكنه ومواقعه .

(٣) دعائم : أسس جمع دعامة .

وكان الحكمُ فيها استبداديًّا : تنحنى فيه الرءوسُ ، وترتفعُ فيه السياط[1] والسيوفُ ، ويطيعُ الناسُ فيه رجالَ الإدارةِ طاعةً عمياء : لا همسَةَ بها للمعارضةِ ، ولاَ سِمة[2] فيها للتباطؤْ ، أو التلكُّؤ[3] ، أو الامتناعِ عن التنفيذِ ؛ فإذا كان شئ من ذلِك فالجزاءُ الجلْدُ والسياطُ ، أو الإلقاءُ فى السجونِ ، أو الحكمُ بالموتِ .

وعادَ قَاسمٌ من فرنسا ببلادِ الحريةِ : يُقَدِّسُ الحرّيّةَ ، وينفِرُ[4] من الظلمِ ، ولعلّه لأوّل مرّةٍ يرى الناسُ رئيسَ نيابةٍ يقفُ فى وجهِ الإدارةِ فيطلِقُ سراحَ المتّهمين الذى كبَّلَتهم[5] بالقيودِ ، وألقت بهم فى السجونِ ، وذلك كما فعلَ قاسمُ أمين حين كانَ رئيسَ نيابةٍ فى بنى سويف . وهذا إن دلَّ على شئ فإنه يدلُّ على أن الرَجُل كان يريدُ لمصرَ حياةً غيرَ الحياةِ القاسية التى مرَّت بها : يريدُ لها حياةً تنعَم فيها بالحرية ؛ فلا يكمِّم الناسُ[6] ، ولا يُلقى بهم فى غياباتِ[7] السجونِ ... ومثلُ هذا الموقفِ تكرَّرَ فى الدفاعِ عن « عبدِ اللّهِ النديم » الذى حُكِمَ عَليه بالإعدامِ ؛ لأنّه وقفَ إلى جانبِ مصرَ ، وإلى جانبِ ابنها « عرابى » ولم يقف إلى جانبِ الخَونَةِ من أذنابِ القصرِ الخديوى ، ومن ذيولِ الإنجليزِ .

ثانيا : أنه فى فَرنسا رأى الفرْقَ الشاسعَ بين الصالحِ من مظاهرِ الحضارةِ الغربية ، ومظاهرِ التخلُّفِ والجمودِ والضَّياعِ فى مصرَ ، فأبى لمصرَ أن تعيشَ أسيرة هذه المظاهر : التعليمُ مُهمَلٌ ، والخرافاتُ

---

(١) السياط : جمع سوط . وهو الذى يعرف فى اللغة العامية باسم الكرباج . (٢) سمة : علامة .
(٣) التلكؤ : التثاقل وعدم الإسراع . (٤) ينفر من الظلم : يمتنع ويبتعد .
(٥) كبلتهم : قيدتهم . (٦) لا تكمم الناس : لا توضَع كمامات على أفواههم .
(٧) غيابات : ظلمات

سائدة[١] ، والأساطيرُ[٢] تملأُ الرءوسَ ، والأجسامُ معتلَّةٌ ، والأمراضُ متفشيةٌ[٣] .

وأحسّ أن أساسَ الخطر جهلُ المرأة ، وانكماشُها عن المجتمع ، وحياتُها الحبيسةُ وراءَ الجدران ، فتجردَ لمحاربةِ مظاهرِ الفسادِ والضَّياع وجاهدَ جهَاد الأبطَالِ في الدفاعِ عن المرأةِ ، وفي استنقَاذِها من الوهدة[٤] التي انحطَّت إليْها ... وكان قاسم أمين بدِفاعه وجهادِه وطنيًا ، بل على قمّةِ الوطنيةِ : يحبُّ مصر ، ويعملُ لخيرِ مصر وإن ظنهُ بعضُ الناسِ مُنْحَلاًّ متطرفًا .

ثالثًا : أن بعض الغربيين هاجمُوا مصرَ ، وحملُوا عليها حملةً شديدةً ، وأصدرُوا الكتبَ في نقدِها ، والتشهيرِ بها[٥] وإذاعةِ نقائصِها المفتراة ، فكَان « قاسم » على قِمّةِ المدافعين عنها ، والمجاهدين في سبيلها .

رابعًا : أن الظلامَ الذي عاشتْ فيهِ مصرُ كان بهِ بصيص[٦] من النورِ .. وقد ظَهَر هذا النورُ مع صدمةِ الاحتلالِ الإنجليزيِّ لِمصرَ سنة ١٨٨٢ .

ذلك أن هذِهِ الصدمةَ أيقظتِ الشعبَ ، ودفعَت بنيه وأبناءَ الإسلام أن يفكرُوا في مستقبلِ البلاد ، ويبادرُوا للأخذِ بيدها ....

وكان في مقدِّمة هؤلاء الروّاد جمالُ الدين الأفغانيُّ ، ومُحمد عبده ، ومصطفى كامِل . ومن إليهم ، ودلّ ذلك على عهدٍ من النهضةِ الوطنيةِ كُتِبَ لها فيما بعدُ النجاحُ والتوفيق .

---

(١) سائدة : منتشرة
(٢) الأساطير : الأقاصيص الخرافية .
(٣) متفشية : شائعة
(٤) الوهدة : الحفرة الهابطة
(٥) التشهير بها : إذاعة كلمة السوء عنها .
(٦) بصيص : شئ من الضوء .

نزعات الزعماء فى مصر ووضوح الروح المصرية فيهم :

اختلفَ هؤلاءِ الزعمـاءُ ، فكـان مِنهُـم المصلـحُ الإسـلامىُّ كالأفغـانىِّ ، والمصلح التعليمىُّ كمحمد عبده ، والمصلحُ الوطنـىُّ كمصطفى كـامل .. ثم كان منهم المصلحُ الاجتماعىُّ كقاسم أمين . وهم مع اختلافهـم مـن روَّادِ الوطنيةِ فى مصر ، ومن رجالِها الأوائلِ .

وفى قاسمِ أمين وضحت هذه الروح . كان قلبهُ ينبض بمصرَ وآمالِ مصـر ، فإذا استقامَ أمرُها أطمأنَّ ، وسـكَنَ فـى صـدرِه ؛ وإذا مـا اصطدمـت بحادثٍ أليمٍ أَسِىَ لها[1] ، وشارَكها مصابها بكلِّ قلبه وجوارحِهِ .

كَتَبَ عنْهُ أحدُ من أرخُوا سيرَتَهُ ؛ وتابَعُوا جهـودَه الصحفيَّـةَ ، ومـا سطَّرتْه يـدهُ مـن مذكـراتٍ . مـن بينهـا المذكـرة التـى كتبهـا يـومَ وفـاة مصطفى كامل الزعيمِ المصرىِّ الشابِ سنة ١٩٠٨ :

« إن هذه المذكّرةَ وحدَها تدلُّك على أن قاسمَ أمين كـان قلبًـا نابضًـا ؛ يحسُّ بدقاتِ القلوبِ ، ويترجمُ[2] عن الشعور الوطنـىِّ الدقيـق الـذى نشأَ بين المصريين ، والذى ترعرعَ[3] فى أيامِ الزعيمِ الشابِّ[4] وبلغَ عنفوانَـه[5] فى الربع الأوّلِ من القرنِ العِشرين . قال :

١١ من فبراير سنة ١٩٠٨ : يومُ الاحتفَالِ بجنازةِ مصطفى كامل هو المرّةُ الثانيةُ التى رأيتُ فيها قلبَ مصرَ يخفِقُ[6] . المرَّة الأولى كـانت يـوم تنفيذِ حكـم « دنْشواى »[7] رأيت عند كـلّ شـخص تقـابلتُ معـه قلبًـا

---

(١) أسِىَ له : حزن له (٢) يترجم : يعبر (٣) ترعرع : نما وقوى

(٤) المراد مصطفى كامل (٥) عنفوانه : قوته (٦) يخفق : يهتز ويرتعد

(٧) يوم دنشواى : يوم مشهور حكم فيه بالإعدام على بعـض الفلاحـين مـن قريـة « دنشـواى بالمنوفية ، لأنهم اجترأوا بالّردِّ على بعض جنود الإنجليز الذين خرجـوا لصيـد الحمـام ، فـأطلقوا عليها النيران التى أصابت عددًا من الفلاحين ، وأحرقت ما أحرقته من أجران القمح .

مجروحًا ، وزوْرًا مخنوقًا ، ودهشة عصبية بادية في الأيدِي وفي الأصواتِ .

كان الحزْنُ على جميع الوجوهِ : حزنٌ ساكنٌ مستسلِمٌ للقدَرِ ، مختلطٌ بشيءٍ من الدهشةِ والذهولِ . ترى الناسَ يتكلمون بصوتٍ خافتٍ وعباراتٍ متقطّعةٍ ، وهيئةٍ بائسة . منظرهم يشبهُ قومًا مجتمعين في دار ميّت ؛ كأنما كانت أرْواح المشنوقين تَطُوف في كلِّ مكان .

ولكن هذا الاتحادَ في الشعورِ بَقِيَ مكتومًا في النفوس ، لم يجد سبيلاً يخرجُ منه ، فلم يبرُزْ بروزا واضحًا حتى يراه كلُّ إنسان .

أما في يومِ الاحتفالِ بجنازةِ « صاحبِ اللواء »[1] فقدْ ظهرَ ذلك الشعورُ سَاطعًا في قُوّةِ جمالِهِ ، وانفجرَ بفرْقعةٍ عاليةٍ سُمِع دويُّها في العاصمَةِ ، ووصلَ دويُّها إلى جميعِ أنحاءِ القطر .

هذا الإحساسُ الجديد . هذا المولودُ الحديثُ الذى خرج من أحشاءِ الأمّةِ ، ومن دمِها وأعصابِها هو الأملُ الذى يبتسِمُ في وجوهِنا البائسةِ ! هو الشعاعُ الذى يرسلُ حرارتَه إلى قلوبِنا الجامِدة البارِدةِ ! هو المستقبل !

هذه كلماتُ « قاسم » ، كان يرى في الزعيم مصطفى كامل أملَ الأمةَ ، ويحسُّ نبضها[2] ، ويتمثلُ مشاعرِهَا ، فيتكلم بلسانِها .

وأى قلب بعدَ هذا القلبِ الكبير ؟!

وأية وطنيةٍ صادقةٍ بعد وطنيتهِ ؟!

لقد كانت الأمةُ كلُّها تعيشُ في قلبَه ، أو يعيشُ في قلبِها ، وهو يرسلُ هذه الكلماتِ الحارةَ المجروحة .

---

(١) صاحب اللواء : اللواء اسم جريدة ، وصاحبها هو الزعيم مصطفى كامل الذى أصدرها

(٢) نبضها : حركة قلبها

الفصل الخامس

دفاع قاسم أمين عن مصر

رده على الدوق داركور

ما رمى به الدوق داركور مصر :

الدوق داركور فرنسيٌّ : تعرفهُ فرنسا ، وتعرفهُ مصرُ ؛ فقد اعتادَ أن يزورَ مصرَ في الشتاءِ ، لينعمَ بجوِّها ، ويشاهدَ معالِمَها وآثارَها ، وتردَّدَ عليها أكثرَ من مرة ، فشفىَ نفسَه بمشاهدِها وجوِّها وطبيعتِها السّاحِرة .

ولكن ذلك لم يبعث في قلبه الرّضا عنها ، ولم يحملْ إليهِ حبّها وحُبّ أبنائِها ، وإنما خلقَ منه ناقدا تُجسّمُ[1] عينُه عيوبَها ، وتحجبُ عنه محاسنَها . تريهِ الأشواكَ وتعميه عن الورود . تكشفُ له النقصَ وتسترُ عنه الكمالَ .

وبهذِهِ العينِ الساخطةِ أخرج سنة ١٨٩٤ كتابَه « مصرَ والمصريُّون » ، وانطبَق عليهِ قول الشاعر :

وعيْن الرِّضَا عن كلِّ عيب كليلة[2] ∴ كما أن عينَ السخطِ تبدى المساويا

الفلاح المصرى عنده :

نظر إلى الفلاح المصريِّ ، وصَحِبَه عبرَ القُرُون ، فلمْ يأبَه[3] بصبرِهِ ، وكفاحِه ، وجَلَدِه ، ولكنّه رأى فيهِ نَمُوذجًا للذلّ والهوانِ والاستعبادِ ، ونظرَ إلى الرباط الذى يؤلفُ بين قلوبِ المصريين ، ويجعلُ منهُم شعبًا له

(١) تجسم : تكبر (٢) كليلة : ضعيفة (٣) لم يأبه : لم يهتم

قوميتهُ القويةُ البارِزَة ، فلم ير فيهم مثل هذا الرِّباط ، ولا مثلَ هذه الروح ، ونَسِيَ روحَ المصريِّ ، وحبَّه لوطنه ، والتفافَ القلوبِ حولَ هذا الحبِّ ، وما لذلك من أثرٍ فى الرُّوحِ القوميِّ العام .

طعن الشعب المصرى :

وأسرف الدوق داركور فى طعن مصر والمصريين ، ودفعته إلى ذلك عصبيتهُ للغربِ ، وحقدهُ على الشرقِ ، وخوفُهُ أن يعودَ الشرقَ عظيمًا كما كانَ ، مجيدًا[1] كما عهِدته الدنيا ، وكما عُرِفَ عنه فى تاريخِه البعيد .

ووجدَ الشعبُ المصرِيُّ منه أقسى الطعَنات .

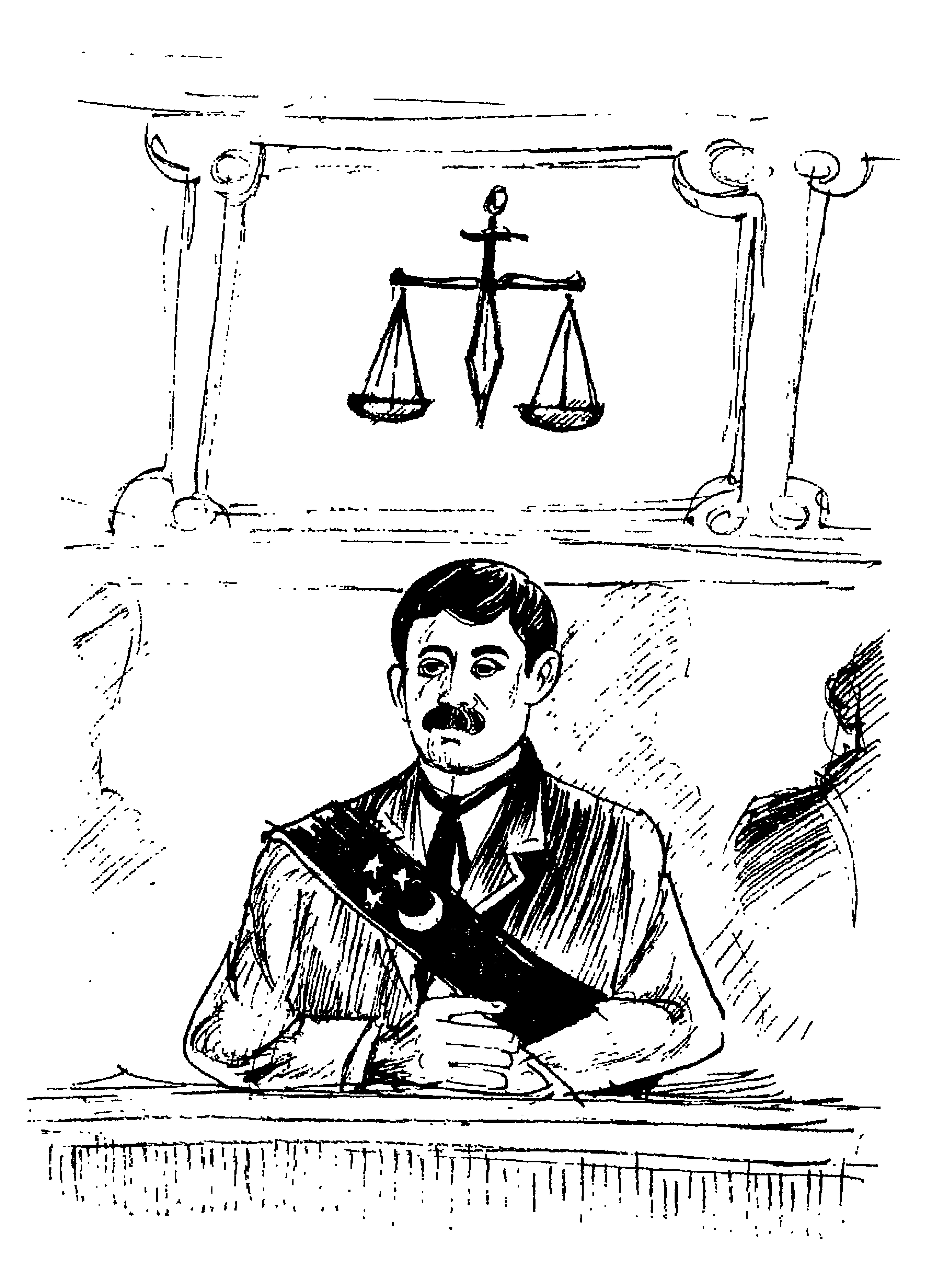
لقد وصفه بأنه مُسخَّرٌ للحاكِم يصرِّفه كما يشاءُ ، ووصفَ حاكِمه بأنه ظَالمٌ مستبدٌ ، ووصفَ العِلاقة بينه وبين الحاكِم بأنّها علاقةُ الكراهةِ والنفورِ[2] .. فهو يخافُ الحاكمَ ، ولكنه يحنى رأسَه له ، ويتظاهرُ بطاعتِه ، والخضوعِ لأمرِه .

وهو عندَه بذلِك ، شعبٌ ضعيفٌ ، ومصرُ عندَه جسْمٌ هزيلٌ لا تترددُ فيه روحٌ قومية .

ولقد وجدَ « داركور » فى مصرَ والمصريين مبادئَ نهضةٍ كان من قادتها : جمالُ الدين الأفغانيُّ ، ومحمدُ عبدُه ، ومصطفى كامل ، ولكنّه غضّ الطرف[3] عنها ولم يُشرِ إليها .

---

(١) مجيدًا : عزيزًا عظيمًا .
(٢) النفور : الابتعاد وعدم الاقتراب .
(٣) غض الطرف : أغمض العين .



مهاجمتهُ للإسلام :

لم يترفع الدوق « داركور » عن مهاجمةِ الإسلام وأبناءِ الإسـلام : لقـد هاجَم حجابَ المرأة ، وهـاجَم حياتَهـا فـى البيْـتِ ، كمـا هـاجَم الطـلاق ، وتعَدُّدَ الزوجاتِ ... وكان أشدُّ هجومِه على المرأةِ المسـلمةِ ، وفيـهِ أسـاءَ إلى مصر والمصريين والإسلام غاية الإساءة .

وكان أرستقراطيًّا[1] ، فرمى مصرَ بأنّها فاسدةُ النظامِ ؛ لأنّهـا لا تجـدُ الطبقةِ العُليا التى تحكمُها ، ونسى الديمقراطيّة وكلمةَ الشـعبِ وحكمَـه بغيرِه .... وكان فى أكثرِ ما يقولُ عدوًا للإسلام ، جاهلاً بـه وبأصَالتِـه وعظمتِه ، فنسبَ إليه كل جمودٍ وتخلّف .

قاسم أمين يتميزُ غيظا ويفحمُ داركور :

رأى قاسمُ أمين ذلك كلّه ، فأصابته حمّى عنيفةٌ كادت تُودِى بحياتهِ[2] وكادت تعصِفُ به ، وظنَّ بعض الظّانّين أن اليأس سـيقِفُ فـى طريقِـه ، ويحول بينه وبين آمالِه وكفاحه !

ولكنّه كانَ أقْـوى مـن اليـأسِ ، وأعظـمَ مـن التـراجعِ والتخـاذُلِ . لقـد ثارت به وطنيتهُ ، والتهبت مشاعرُه ، وتوقّدَتْ حماستُه لمصـر والمصريـين ، ولدينهِ الإسلاميِّ المجيد العظيم ، فتجرّد للردِّ على داركور فى كتابٍ ألّفَـه بالفَرنسية ، وأخرجه سنة ١٨٩٤ من الميلاد .

وفى هـذا الـردِّ درسَ قاسـمُ أمـين الكثيرَ عـن الشـريعةِ الإسـلاميةِ ، وعـن القواعدِ الأساسيةِ للإسلامِ ، وجاءَ ردُّهُ من منابعِـه الصحيحـةِ ، ولـم يكـن

(١) أرستقراطيا : ينظر إلى المصريين نظرة الطبقة الحاكمة المتحكمة

(٢) تودى حياته : تقتله

سطحيًّا ، أو وحيَ عاطفةٍ عابرة ، ومشاعرَ طافيةٍ هوجاء [١] .

أثر الرد فى نفس داركور وفى حياة قاسم :

اصطدم « داركور » بهذا الردِّ ، وعرف أن فى مصر رجالاً ، وأن للإسلام أبناءً أحرارًا بررة[٢] استطاعوا أن يُدافِعُوا عنْه ، وأن يفحمُوا[٣] « داركور » ويلقموهُ الحجر .

ومع ثورةِ قاسمِ أمين وحماستِه لم يخرُج عن اتّزانِه ، ولم يَفتعِل الأكاذِيبَ ، ولم يدفع الحقَّ بالباطِلِ ، والصحيحَ بالزورِ والبهتان[٤] لقد اعترَفَ أنّ فى قومِهِ نقائِص ، ولكنها لا تنقص من محاسنِهم ، وأقرّ الصحيحَ من كلام « داركور » ولكنّه كشفَ عن حقدِه وتعصبِهِ ، ودوافعهِ إلى الانتقامِ من الشرقِ ؛ بالانتقامِ من مصرَ والمصريين .

وبهذَا الردِّ على « داركور » دخلَ قاسم أمين حياة المجتمعِ ، واستقرَّ حبُّهُ فى قلبه وأعماقِه ، وتأهّب[٥] منذُ ذلِك التاريخِ ليحملَ راية الريادةِ الاجتماعية ، ويدخلَ بين زعماءِ الإصلاح فى مصر : وطنِه الحبيب .

---

(١) هوجاء : حمقاء (٢) بررة : أخياراً (٣) يُفحِموا : يسكتوا

(٤) البهتان : الزور الذى يبهتُ من يرمى به ويحيره (٥) تأهب : استعد

الفصل السادس
شخصية قاسم أمين

نظرة عامة :

شخصية قاسم أمين شخصيةٌ ليست قريبةً ولا يسيرة[1]

إنها شخصيةٌ عظيمةٌ ، بعيدةُ الأعماقِ ، مترامية الآفاق[2] ، متعددةُ الجوانب : فيها من التركيةِ ، وفيها من المصريةِ ، ولكن حظها من الروح المصرية أوفى[3] وأوفرُ . فيها من آثار البيئةِ في مصرَ وفيها من آثار البيئة في فرنسا ، ولكن انعكاسَ البيئةِ المصريةِ عليه أقوى وأظهرُ من تأثرِهِ بالبيئةِ الغربيّة . فيها من الثقافة الشرقيةِ وفيها من الثقافةِ الغربيةِ ، ولكن ثقافته الغربية لم تنسه وطَنه ، ولم تجتذِبْه إلى حياة الغربِ ، ولا إلى نزعاتِه المتحرّرة ، أو انطلاقاتِه البهيميةِ المتحللة .

نظرة تفصيلية :

قاسم أمين هو قاسمُ أمين ! .

هو قاسمُ أمين بشخصيتِه المتميزةِ ، وكيانِه المتفرِّد ، وطبيعتِه المستقلّةِ الخاصةِ به وحدَه ودُون سواه .

وأقْوى ملامحِ هذهِ الشخصيّةِ تتّضِحُ في كثيرِ من مظاهرِ حياتِهِ :

له عقلُ مفكرٍ ، وحِسٌّ أديبٍ ، وروحُ صديقٍ ، وانطلاقة متحررٍ متزنٍ ، وملاحظةُ ناقدٍ متبصرٍ ، ودراسةُ باحثٍ ممعن[4] مدققٍ ، وشعورُ ودُودٍ محبٍّ للناس ، رفيقٍ بالناس ، حريصٍ على إسداءِ الخيرِ العميم[5] .

ومع ما فيه من رُوحِ الوُدِّ والصداقةِ وحبِّ الناس له رسوخُ الجبلِ في

---

(1) يسيرة : سهلة . (2) مترامية الآفاق : بعيدة الميادين والنواحي .

(3) أوفى : أكمل وأعظم . (4) ممعن : محقق مدقق . (5) العميم : الشامل .

الحقِّ ، وصَلابةُ الفولاذِ في العزيمة ، وقوة السيل في الاكتساح ، واطّراد النهر في التدفق والانطلاقة ، كما أن له عزةَ النفسِ ، وحماسةَ الإباء[١] إذا احتاجَ الأمرُ إلى العزةِ والحماسةِ والإباء .

* * * *

لقاسم أمين عقلُ المفكرِ الهادئ المتّزنِ ، الميالِ إلى الصمتِ والسكونْ ، ولَكنه في هدوئِه وصمتِه وسكونِه لا يكفُّ لحظةً عن التفكيرِ فيما حولَه وتعمُّقِ أغوارِه[٢] وأعماقِهِ وأبعادِهِ ، وهو في هذا كالنجمِ يُرَى ساكنًا وهو في أسرعِ حالاتِ الحركةِ والدورانِ ، وكالجدولِ الوديع يُظَنُّ واقفًا وهو مسترسِلٌ في حركتِه وجريانِه .

* * * *

وله حسُّ الأديبِ في ملاحظتِه للبيئةِ والناسِ وأحداثِ الاجتماع ، وانفعالِه بها ، وحسنِ تعبيرِه عنها . وأسلوبِ تناولِه لها . كتبَ عنِ الوطنيَة في مصر :

من ذا الذى ينكِرُ على المصريين تقدمَهم في الإحساس الوطنيِّ ؟

عاش آباؤُنا ، وتعلَّمُوا ، واشتَغلوا بالصناعةِ والتجارةِ ، وخدمُوا أمتَهم وفتحُوا البلادَ ، وحاربوا الأممَ . ولم نسمعْ عنهم أنهم كانوا يحبُّون وطنَهم ويتهمون خصومَهم بالخيانة !

وكأنه يريُد أن يصف وطنيتَهم بأنها عريقة[٣] من ناحيةٍ ، أصيلةٌ وطبيعيةٌ من ناحية أخرى ، حتى إنهم لم يكونوا يتغنَّوْنَ بها ، ولايشغلُون ألسنتهم بترديد ألفاظها ، وهذا هو حسُّ الأديبِ ، وأسلُوبُ الأديب . ويمضى

---

(١) الإباء : العزة والامتناع من الانحدار إلى مالا يليق . (٢) أغواره : جمع غور . أعماقه .
(٣) عريقة : أصيلة قديمة .

« قاسم أمين » وكأنما يتعجّب ويدْهَشُ . يقول :

أما الآن فأينما قرأتُ وفى أىّ مكان وُجدتُ لا أسمع إلا حبَّ الوطن ، والجريدةَ الوطنيةَ ، وحِزبَ الوطن ، والبيوتَ التجاريةَ ، والمحالّ الصناعيةَ ، والصيدلياتِ وعياداتِ المرضى التى تشتغلُ وتبيعُ لخدمةِ الوطن . صار حبُّ الوطن دينا جديدًا . من اعتنقه رَبح ، ومن بعُدَ عنه خَسر .

فماذا يريدُ قاسمُ أمين ؟ إنه فى أشدُّ الإعجاب بالوطنية الناشئة ، وبالدين الجديد دين هذِهِ الوطنية ، وفى أشدّ الحرص على أن تكون هذه الوطنية وطنيةَ العمل إلى جانب القول ، ووطنية الجدّ والاجتهاد والنضال فى سبيل النهوض بما تفرض من واجبات .

* * *

ولقاسم أمين روحُ صديق ... وقد تردَّدَت كلمةُ الصداقةِ على لسانِه ؛ حتى كأنها دعامةٌ من دعائمِ تفكيرِه ، وأساسٌ من أسسِ كيانِه وحياتِه .

فالرفيقُ صديقٌ ، والزميلُ صديقٌ ، والودودُ[1] صديقٌ ، وهو صديقٌ لكلّ الناس . وفىٌّ لصداقاتِهم ، وهو حريضٌ على كلّ ما يدعَم[2] روابطَه بهم ، بعيدٌ عما يُضعِفُ من هذه الروابط ، أو يُمزّقُها ، أو يعصفُ بها ، وقد كتبَ إلى الزعيمِ الخالدِ سعد زغلول :

« إلى صديقِى سعد زغلول :

فيك وجدتُ قلبًا يحبُّ ، وعقلاً يفكرُ ، وإرادةً تعملُ ، أنت الذى مثلتَ لى المودةَ فى أكملِ أشكالِها ، فأدركتُ أن الحياةَ ليست كلُّها شقاءً ، وأن فيها ساعاتٍ حلوةً لمن يعرفُ قيمتها » .

---

(١) الودود : المحب . (٢) يدعم : يقوى .

ويمضى قاسم أمين إلى لون آخر من الصداقة . يقول :

« من هذا أمكننى أن أحكمَ أن هذه المودةَ تمنحُ ساعاتٍ أحلى إذا كانت بين رجلٍ وزوجتِه . ذلك هو سرُّ السعادةِ التى رفعَت صوتِى لأعْلِنَهُ لأبناءِ وطنى رِجالاً ونساءً »

* * * *

ولقاسم أمين انطلاقةٌ متحرِّرة فى اتّزان ... فهو عاشِقٌ للحريةِ مشغوفٌ بها[1] مولعٌ[2] بأن يراها مطَبَّقةً سائدةً ، ولكنه لا يحبُّها قط[3] متحللة ، ولا يهيمُ بها[4] فى صورتها البهيميةِ المنحطَّة .

لقد رأى الحرية فى فَرنسا ، ورأى مظاهرَها ، ومجالاتِها التى لاحدَّ لها ، ولا قُيودَ عليها ، ولا شكَّ أنه أحبَّ الحريةَ ، ولكنه لم يحبَّ قطُّ انطلاقَها بِغيرِ حدودٍ ولا قيود .

كان يريدُ حرِّيةَ المظلومِ ليتحرَّر من سجنِه ، والمقيدِ بغير حقٍّ ليفلِت من قيدِه ، والمرأةِ لتتخلَّصَ من استعبادِ الرّجلِ لها ، ومن حبسِها بينَ الجدران ، ويحبُّ حريةَ الأسرى فى ظلماتِ الجهلِ ، وآلام الفقرِ ، ومآسى[5] الحرمان ؛ ليُلقُوا عن ظهورِهم أوزارَ[6] هذهِ المحنَةِ وأثقالَها ، ولكنه لا يريدُ للمرأةِ حريةَ التبرج ، أو حريَّةَ الخلاعةِ ، ولا يحبُّ لأحدٍ أن تتحولَ حُرِّيتهُ خداعًا ، أو نِفاقًا ، أو لعبًا بالعقولِ والمشاعِرِ .

* * * *

ولقاسمِ أمين ملاحظة ناقدٍ متبصِّرٍ . . وأوضحُ ما يدلُّ عَليها نقدُه للمجتمع المصريِّ بخيرِهِ وشره . بمحاسنِه ومساوِيه . بحكّامِه وأبنائِه . .

---

(١) مشغوف بها : شديد الحب لها . (٢) مولع بالشىء : شديد التعلق به . (٣) قط : أبدا .
(٤) لا يهيم بها فى صورتها البهيمية : لا تثيرُ عشقه لها فى صورتها الحيوانية الوضيعة .
(٥) مآسى الحرمان : قصصه الأليمة (٦) أوزار : أثقال

بمختلِف من به من الرجالِ والنساء ، من الكبارِ والأطفالِ ، من ألوانِ النشاطِ ومظاهرِ التقدمِ والتّخلّفِ عَلى تعددها ومع اختلافِها . . بل قد تصِلُ ملاحظتُه إلى الدقائق التى لا يلاحظُها غيرُه ، والخفايا التى لا يدرِكُها سواه . قال عنه أحد من أرَّخوا له : « قد استطاعَ أن يقيمَ معيارًا صحيحًا يقيسُ به رغباتِ الرجالِ ونزعاتِهم ، ولسنا ندرى : هل كان يتنبَّأَ بكشوفِ علم النفس الحديث حين قال : إن الإنسانَ أسيرُ الشهوَاتِ ما دام حيًا ، وإنما تختلفُ شهواتهُ باختلافِ سنّه . فشهوةُ اللعب عند الطفل ، وشهوةُ الحُب عند الشابِّ ، وشهوةُ الطمعِ عند رجلِ الأربعين وشهوةُ السلطةِ عند شيخِ الستين . جميعُها شهواتٌ ، تعرّضُ صاحبَها للهفواتِ واقترافِ الخطايا .

* * * *

ولقاسم أمين دراسةُ باحثٍ ، وذلك واضحٌ من ردِّه على الدوق داركور ، واستنادِه إلى التاريخِ والبيئةِ والشريعةِ والاجتماع ، واضحٌ أيضًا من مؤلفاتِه ومقالاتِه الدقيقةِ العميقة .

* * * *

وقاسمُ أمين ــ فوقَ ذلك كلّه ، وبعدَ ذلك كلّه ـ متمسكٌ برأيِهِ ، معتزٌ به ، مصمِّم عليه ، وهو فى تمسكهِ برأيِهِ ، واعتزازه به ، وصلابتِهِ فيه ــ يسلُك مسلكَ أبيه فى تصميمهِ على الهجرةِ من « الآستانةِ » ، وفراقِه لأسرتِه ، ورحلته إلى مصرَ وإلى جنتها الخالدة .

ومن مظاهِر تمسكِه برأيه أنه كان فى مقدَّمةِ من دَعَوا إلى إنشاء الجمعيةِ الخيريةِ ، وأرادَ بعضُ الأعضاءِ معه أن تكُونَ أموالُها وقفًا عليها ،

حتى لا يبدِّدَها أحدٌ ، وأبى هو أن تكون وقفًا ؛ حتى لا تكون جامدةً ، ويصعُبَ التصرفُ فيها .

وصمّموا ، وصمم ، وأصرُّوا وهددَ بالاستقالة . وما زالَ حتى سلّموا برأيه ، ورجعُوا عن آرائهم .

العوامل المؤثرة فى شخصيته :

كان من وراءِ شخصيته مؤثراتٌ متعددةٌ : كان من العواملِ المؤثرةِ فيها وراثتهُ عن أبيه وأسرتِه ، وبيئتهُ فى مصرَ وفى فرنسا ، ودراستهُ الشرقيَّة والغربيةُ ، وبحوثه فى الشريعةِ والدينِ والقانونِ والاجتماعِ وغيرِها ، وغيرِها . قال عنه أحد من أرَّخوا لفكرِه وحياتِه :

إنه تأثَّرَ بخَيرِ ماكانَ فى الوسطِ المصرىِّ ، فأُشْرِبَ[1] روحَ الإسلام منذ أن كان ناشئا ، وتأثرَ بالوطنية الشابة ، فكانَ وطنيًّا من طرازٍ خاص[2] . وتأثرَ بدراسته الفرنسيةِ ، فآمنَ بما كان يتدفَّعُ فى الوسطِ الفرنسىِّ من أفكارِ الحريةِ والتقدم ، وتأثرَ بالحضارةِ المادية فى أوربةِ ، فدعا إلى اتباعِ خطاها » .

لقد تأثر بكل هذه العواملِ ، وأتيحت كل هذه العوامل لهذه الشخصية ، ولكن فى تدبُّرٍ وتعقُّل . وعن وعيٍ صحيحٍ ، وبصيرةٍ مستقيمة .

---

(١) أشرب روح الإسلام : سرى فيه حبه وحرصه على الدفاع عنه .

(٢) من طراز خاص : من نوع خاص .

الفصل السابع

قاسم أمين والإسلام

نزعته الإسلامية المتبصرة :

نشأ « قاسمُ أمين » فى أسرةِ تركية مسلمةٍ ، وفى الأتراك نزعةٌ دينية متعصّبةٌ ، وقد تولّت أسرتهُ الإشرافَ علَى « السليمانية » بالعراقِ ، فكان عليها بذلكَ أن تحافظَ على الشعائر والمراسمِ الدينية ، وفى ذلك ما يزيدُ من ارتباطِ الأسرةِ بالإسلام ، والحرص على مظاهره ؛ والقيامِ عليها .

ولا شكّ أن « قاسمَ أمين » تأثر بالدراسةِ فى فرنسا ، ورأى من الحريةِ الدينيةِ والحريةِ العامّةِ ما لم يَره فى مصرَ . ولا شكَ أيضًا أنه وَجدَ العقليةَ الغَربيةَ تنظرُ إلى الدينِ نظرةَ مخالفةً لنظرةِ الشرقِ المسلم إليه ، ولكنه كان مسلما شديدَ الغيرةِ على الإسلام ، وظهرَ ذلك فى كتابتهِ عنه ، وفى ردّه على الطاعنين فيهِ .

غير أن قاسمَ أمين لم يفهم الدينَ كما يفهمُهُ أصحاب الخرافات ، وضحاياَ الأساطير[1] ، ولم يرَه بعين الجمودِ والتعصُّب الأعمَى ، وإنما رآه بعين بصيرةٍ ، وعقلٍ متفتّحٍ ، وأفق واسع ، وكانت نظرتهُ إلى جوهره[2] أشدّ من نظرتِه إلى سطحياتِه وهَوامِشه ، وإن تطرف فى ذلك بعضَ التطرف .

---

(١) ضحايا الأساطير : من يتمسكون بها وينفعلون بما فيها .

(٢) جوهره : أصوله وحقيقته .

دفاعه عن تقدمية الإسلام :

رأى الدوق داركور يرمى الإسلامَ بأنه سببُ التخلف فى مصرَ ، وسرُّ العاداتِ السيئةِ التى يأخذُ المصريون أنفسهم بها ، وأساسُ الجهل الذى يعانيه أبناؤها ، فثار لدينهِ ، وردَّ ردًّا أسكته ، وكتم أنفاسَه[1] . ولقد اعتنق قاسمُ أمين فكرةَ « التقدم » وما زالَ يبحثُ حتى اهتدى إلى الوفاق بينها وبين الإسلام ، وذلك فى قولهِ تعالى : ﴿ إن اللّهَ لا يغيرُ ما بقومٍ حتى يغيِّرُوا ما بأنفسِهِم ﴾ .

« إن هذهِ الآية قانونُ الإسلام ، وبها يظهرُ للقارئ : كيفَ توافقت شريعتُنا هى والعلمُ ، كما تتفق معه دائمًا لو كان القائمون بشئونها رجالاً أكفاء[2] يخدمُونها بجدٍّ ، ويفهمونها بوعى وبأصالة إدراك .

دفاعه عن نظرة الإسلام إلى المرأة :

رأى قاسمُ أمين الدوق داركور يرمى الإسلام بأنه رفعَ مكانةَ الرجلِ ، وهبطَ بمكانةِ المرأة ، فجعلها سلعة فى يدِه ، يحرمُهَا نورَ الحياة ، ويحبسُها فى البيتِ ، ويُلزِمها الحجابَ ، ويُحرِّم عليها العملَ ، ويحولُ بينها وبين ألوانِ النشاطِ فى المجتمع .

انتفض « قاسم » لهذه الطعنات الظّالِمَة ، ودافعَ عن الإسلام وعن المرأةِ أجلَّ دفاعٍ ، فقرّرَ أنه قد سوّى بين الناس جميعا ، ورفع المرأةَ إلى مستوى الرجلِ ، ولم يجعل له امتيازًا خاصًا يعلُو به ويهبط بها .

الإسلام يسبق غيره من النظم الثورية التقدمية :

قرّرَ « قاسم أمين » كذلك أن الإسلامَ قد سبقَ كلَّ النظم السياسية

---

(١) كتم أنفاسه : ضغطها فلم يهيئ لها أن تتنفس .

(٢) أكفاء : جمع كفء ، وكفءُ الشئ من على مستواه فى القدرة .

الثوريةِ بألفِ سنة ، أو تزيد ؛ فقد أنكـر امتيـازاتِ البلادِ ، وامتيـازاتِ الثروةِ ، وكان وحدَهُ الدينَ الذى يفسَحُ فى المجـالِ لكـل ذى عمـل أن يحسنَ عملَه ، ويرقَى به من أدنىٰ الدرجاتِ إلى أعْلاهَا .

كما قرّرَ أنّ هذا الدّين هو الذى منحَ المرأةَ من الحقوقِ مـا لـم تبلُغـهُ المرأةُ الغربيةُ إلى أواخـر القـرن التاسـعَ عشـرَ ؛ فهـى عنـدَه ـــ حتـى إن تزوجت ـ تحتفظُ بحقوقِها المدنيةِ ، ولها الكفاءةُ[١] شرعًا ـ أن تتصـرفَ فى أمورِها دفعًا ومنعًا ، ومن غيرِ أن تسـتصدرَ تفويضًـا مـن زوجِهـا أو من المحكمة .

المرأة فى الغرب :

يزدادُ الغضبُ بقاسم أمين !

وتزداد ثورتهُ على أمثالِ الدوق داركور ، فيتناولُ المرأةَ فى الغـرب ... وما بلغت من تحلُّل ، وما هى فيه من امتهانَ ، ومـا تُزْهَـى بـه[٢] وهـى فـى أحطِّ درجاتِ الاجتماع .

ويوردُ إحصـاءً يدلّـلُ بـه علـى حالِهـا فـى الغـرب ، فيذكـرُ أن ربـع المواليدِ فى أوربة غَيرُ شرعيين ، وأن مائة وخمسين ألفا منهم قُتِلُـوا وهـم يخرجونَ من بطونِ أمهاتهم ، وأن السببَ فـى ذلـك الاختـلاطُ الشـديدُ بين الرجلِ والمرأةِ ؛ فالمرأةُ الأوربيـةُ تسـقطُ دائمًـا فـى وَحْـلِ الرذيلَـةِ ؛ لأنها تجدُ الظروفَ مهيأةً لها .

فهناك النزهاتُ الطويلةُ التى يقضيها الرجلُ والمرأة وحدَهمـا ؛ علـى الحشيش الأخضر الـبرّاقِ ، وهنـاك حمامـاتُ البحـرِ ، وهنـاك الحفـلاتُ

---

(١) الكفاءة : المراد الصفة التى تصلح بها للتصرف . (٢) ما تزهى به : ما تتباهى به

الصاخِبَـةُ[١] ، وهنـاك الولائِـمُ الفخمـةُ ، ثـم هنـاك ـــ بعـد ذَلـك كلـه المراقصُ ؛ حيثُ تكتَسى النساءُ من الثيـاب الشـفَّافةِ ما يبلُـغُ إلى تحـت الأكتـاف ، وتلـك الصـورُ المتهتكـةُ البارِيسـيةُ هـى التـى أنتجـت ذلـك التحللَ الخُلقىّ فى المرأةِ الفرنسية ، وهى صـورٌ جديـرةٌ بـأن تـبرزَ حـين يهاجِمُ المتعصبون الحجاب .

والإسلام عنـدَ « قاسـمٍ » شـئٌ ، ونقـائصُ أبنائِـه شـئٌ آخـرُ منقطـعُ الصلةِ بهِ ، وهو حين يعترفُ بعيوبِ المسلمين لا يَغْفل عـن محاسـِنِهم ، ولا يُريدُ التشهيرَ بهم ، وإنما يرجو لـه الخـروجَ مـن الأسـوأ إلى الأحسـنِ ، ومن الأنقصِ إلى ما هو أفضل .

وأخـيرًا لقـد فـرّق كثيرٌ مـن أبنـاءِ الإسـلام بـين آراء قاسـم أمـين ، وحملاتِ التشْهير به ، وعرفوا أنهُ يريدُ الخيرَ للإسلام وأبنَائِـه ، كمـا أن الزمن أتاح لغير قليل من آرائِه أن تُطَبَّقَ ، وأن تعيشَ وليـس بهـا جـرحٌ للإسلامِ ، ولا طعنٌ فيه ، أو خروجٌ على مبادئِه وتعاليمه .

---

(١) الصاخبة : ذات الضجة الواضحة

الفصل الثامن

قاسم أمين والمرأة

وجهة نظره فى الدفاع عن المرأة :

لقد شغلت المرأةُ المسلمةُ المصريةُ « قاسمَ أمين »

وشغلته هجماتُ الغرْب عليها ، وطعنهُم فيها وفى حجابِها ، وسجنِهَا فى البيت . . فتجردَ للدفاعِ عنها ، وعانَى فى ذلك أشَد المعاناة .

وكان فى دفاعِه بين عوامِلَ ثلاثة :

كان يقّدرُ المرأةَ غايةَ التقديرِ ، ويقدِّسُ الإسلامَ كلَّ التقديس ، ويحرصُ على أن يخرجَ بالمرأةِ من حياتِها إلى حياةٍ أخرى أجدَى عليها ، وأنفَعَ لها ولمجتَمعها .

* * * *

كان يقدِّرُ المرأةَ غايةَ التقديرِ ؛ لأنه يرى فيها الركيزةَ الأولى لبناءِ المجتَمع ، ويَجدُ فيها أساسَ كيانِه ، وسرَّ صلاحِه ، ودعامةَ ائتلافِه وتماسكِهِ . هيَ عندَه أمُّ الطفلِ الذى يصلُحُ بصلاحِها ، ويفْسُدُ بفسادها ، وهى عنده بانيةُ الزوجِ ، وصَانعةُ الرجل ، وروحُ المستقبلِ الذى يحيا بمن تصنَعُهم ، ويمضى بجهودِهم على طريق التقدمِ والنماءِ والحياةِ الصحيحة . كان يضعْ بين يديها آمالَ مصرَ ، وأقوى ما يتاح لها[1] من العزة والكرامةِ ،وما يتاح من السعادة لشعبها ولأبنائها .

وكان يرى عاصفةً من النقدِ لها ، ولوضعِها الاجتماعىٍّ . يُوَجِّهها إليها الحاقدون على الإسلامِ وفى مقدمتهم « الدوق داركور » .

---

(١) ما يتاح لها : ما يهيأ لها ويمكن أن تعتمد عليه .

وكان يأْسَى[1] لهذِهِ العاصفةِ ، ويأْسَى أكثرَ لمن ينْسُبُون عيوب المرأة المسلمةِ إلى الإسلام يُشَوِّهونَه بها ، ويطعنونه بطعناتِها ، وهم في أعماقِهم حاقدونَ عليه يُريدون الشرّ به وبأبنائهِ .

* * * *

ولم يكن قاسم أمين ينكرُ تَخلُّفَ وضعِها الاجتماعيّ . . كان يراها عبدة في يدِ كثيرٍ من الأزواج ، وكان لا يرَى فيها الصديقةَ المنشودةَ[2] لزوجها .

وكان يجدُها مقيدة بقيود البيت ، أسيرةَ لسجنهِ ، محجبة بحجابه ، مغلولةَ بأغلال[3] متعدِّدة ؛ من الجهلِ ، والتخلفِ ، والخضوعِ الأعمى للرجلِ ، والانعزالِ عن المجتمعِ ونشاطهِ . كان لا ينكرُ ذلك كلَّه ، ولكنه ينكرُ أشدَّ الإنكار أن يكون سببهُ الإسلامَ ، كما ينكرُ ما يوجَّه إلى هذا الدين القويم[4] من إذلال لها بالطلاقِ وتعددِ الزوجات والحجاب !

كتاباه في المرأة والدفاع عنها :

تألّم قاسم أمين لهذه العاصفةِ الظالمةِ ، وأصابته منها الحمَّى ، وكادت تقتلُه .

ولكنه قهرَ الآلامَ والانكماشَ ، وتجردَ للدفاعِ عنها وعن الإسلامِ ، فأصدر كتابيه « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة »

وكانَ في كتابيه يتحدثُ عن مكانةِ المرأة في المجتمعِ ، وأثرِها في حياتِه وصلاحِه بها إذا صلَحت ، وعن الدستورِ الذى لا بدَّ منه ليأخذَ

---

(١) يأسى : يحزن . (٢) المنشودة : المرجوة . (٣) أغلال : قيود . جمع غل .

(٤) القويم : البعيد عن كل عِوَج

بيدها ، ويضعَها في وضعها الصحيح .

وجرَّه الحديثُ عنها ، وعمّا رُمِيَت به ـ إلى الحديثِ عن الطلاقِ ، وعن تعدُّدِ الزوجات ، والحجاب ، وعن الإسلامِ ، ويسرِ قواعدِه ، ومكانةِ المرأة في تعاليمِه ، وما نالت من الحقوقِ على يده .

أصداء آرائه :

وكان لآراءِ قاسمِ أمين دويٌّ شديدٌ[1] ، ولصرَخاتِه زئيرٌ يعمُّ الآفاقَ .. وفي هذه الآراءِ صارخَ بما ينادى به : من الدعوةِ إلى السفورِ ، ومحاربةِ التبرُّج ، ومشاركةِ المرأة في العملِ على أساسٍ من الأخلاقِ والآدابِ الكريمةِ ، وإعطائِها حقوقَها ، وعدمِ ظلمِها أو العدوانِ عليها ، وفيها أفاض[2] في الحديثِ عن الإسلام ووضعَه في وضعِه الصحيح ، ولم يتجنَّ عليه[3] أو يسئْ إلى مبادئِه ، كما يزعمُ بعضُ المناهضين له ... قال أحد من كتبوا عنه :

« خرج على الناس بآراء حول المرأةِ ، فأحدثَ ثورةً في الأفكار وكانت في نفسِها رَشيدَةً ؛ لأنها بَعثت أهلَ الدينِ على التفكيرِ ، ولأنّها بعثت الشبابَ على العملِ ، ولأنّها بعثت الشيوخ على التدبُّر ، ولأنها بعثت المجتمعَ على الإصلاح .

موقف الناس من آرائه :

كان حديثُ قاسم أمين عن السفورِ ، والحجاب ، والطلاق ، وتعدُّد الزوجات . . غريبًا على رجالِ الدين الذين يعرِفون قشورَه ، ولا يعرفون جوهَره .

---

(١) دوى شديد : صوت قوى يصل إلى كل أذن . (٢) أفاض : أطال الحديث .

(٣) لم يتجنَّ عليه : لم ينسب إليه ما لا صلة له به من نقائص .

وانطلق الناسُ يتصَارعون : منهم من يؤيدون الحجابَ ، ومن يؤيدون السفورَ ، ومن يدافعون عن الحجابِ الشرعي ، ومن يناصرونَ وجهة نظرِ الإسلامِ في الطلاق ، وتعدُّدِ الزوجات ، ومن يشيدون بالغربِ وحريتِه وتحرُّره .

ولم يكن دستورُ « قاسم أمين » في المرأة مُجرَّد كلماتٍ . وإنما كان دعوةً إلى أن تتعلمَ كما يتعلمُ الرجلُ ، وتتحرّرَ كما يتحرّر في غير مجاوزةٍ[1] ولا إسرافٍ ، ودعوةً إلى أن تعملَ كما يعملُ ، وتنتجَ كما ينتجُ .

وليس السفورُ الذى دعا إليه كسفور الغربيات ، وإنما هو سفورُ المسلماتِ ، أو سفُورُ الحجابِ الشرعي الذى أقره الإسلام ، وأتاحه للمرأةِ المسلمة ، وليست الدعوةُ إلى تعليمِ المرأةِ لمجردِ الإصلاح الاجتماعيّ ، ولكن لحياةِ المرأةِ وتطوُّرِهَا . قال أحد من كتبوا عنه :

« هو لم يدعُ إلى تربيةِ المرأةِ وتثقيفِها إلا لأنه كان يرى أن التفَاهُم من بين أسُسِ السعادة ، وأنّه لا يمكنُ أن تكونَ صداقةٌ بين الرجل والمرأةِ ما دامَ أن الرجل أرقى منها ثقافةً وأوسعُ منها محيطًا[2] ، وبذلك عمِل قاسمُ أمين على إنصافِ المرأة ، وحرَص على إنصافِ الإسلام ، وإنصافِ الحقيقةِ ، وبعثِ المجتمعِ إلى التقدمِ والحياةِ الصحيحة .

---

(١) مجاوزة : خروج على المعقول والمقبول .

(٢) أوسع منها محيطا : أوسع منها علما وثقافة .

الفصل التاسع

قاسم أمين وجهوده الإصلاحية

مصلح اجتماعي :

لم يكن « قاسمُ أمين » بطلاً من أبطالِ الحروبِ ، ولا جنديًّا من جنودِ ميادينها ـــ كما تقدم ـــ وإنما خُلِقَ ليكونَ رائدًا من روادِ الإصلاحِ الاجتماعيّ ، وزعيمًا من زعمائه . خلِق للناس أكثرَ مما خُلِق لنفسِه ، وأحسَّ بالولاءِ للجَماعةِ[1] التى نشأَ فيها ، وعاشَ بينَ أفرادِها ... وقدْ وُلِدَ بِمصر ، وعاشَ بمصرَ ولمصرَ ، فأحسَّ الانتماءَ الحقَّ إليها ، وقضى حياتَه لها وفى سبيلِها .

أظهر جهوده فى إصلاح المجتمع :

من يدْرُسْ حياةَ قاسم أمين يُحسَّ وطنيتَه الحقةَ لمصر ، وعملَه الدائبَ لخيرِها ، وإصلا حِها . وأهمُّ أعمالِه فيها .

أولا : محَاربةُ الفسادِ الاجتماعِيِّ ، والعملُ على إصلاحِ الشعب وتقدُّمِهِ .

ثانيا : تَحريرُ المَرأةِ ، وإنقاذُها ، والنهوضُ بها .

ثالثا : من أعمالِه الجليلةِ أن كان أولَ من دعا إلى تأسيس « الجمعيةِ الخيريةِ الإسلامية » ، وكان تأسيسُها صدًى[2] من أَصداء النظامِ فى نفسِه وحياتِه ، وفى نفوس نفَرٍ من صحْبه . لقد رأى البرَّ فوضى ، ورأى الإحسانَ شتاتًا ! هذا يعطى وهذا يمنعُ . هذا يأخذُ وهذا يُحرَم . هذا يدفعُ برَّه فى ناحيةٍ ، وهذا يدفعهُ فى ناحيةٍ أخرى ، وهذا يتوارَى فلا يدفعُ شيئًا . .

---

(١) الولاء للجماعة : الوفاء لها ولحقوقها .

(٢) صدًى : المراد أثرا .

ورأى الجهودَ الفرديـة ــ علـى كثرتِهـا ــ ليسـت شـيئًا يذكَـرُ أمـام المشروعاتِ العظيمةِ ، وأمامَ ما تحتاجُ إليه من مال كثير .

لم يأنسْ[١] « قاسم أمين » لهذا الوضعِ ، ولم ترتَحْ نفسـهُ لـه ، ففكّـرَ فـى وضعٍ ينظِّم به البرُّ ، وتزيدُ به عوائِدُه ، وتنتشرُ فوائدُه بين الناس . قيل عنه :

« كان قاسمُ أمينَ من بين الأعضاءِ الأوائِل الذين وجهوا الجمعيةَ فى سبيل البر . . ولعل أهدافَه فى ذلك كانت متعددة :

« كان يريدُ بهذه الجمعيةِ اجتذابَ أكـبر عـدد مـن النـاسِ ليسـهِمُوا فيها[٢] ، ويتعاونُوا على تكوينها ونشرِهَا فى أنحاءِ القطر .

« وكان يريدُ تنظيمَ أموالها لكـى تُسـدَى[٣] إلى ذوى الحاجـاتِ فـى عدالـةِ ، وبأدَقِّ نظـام . وأحـبَّ أن يُجمـعَ المـالَ الكثـيرَ ؛ ليواجـهَ المشـروعاتِ الكبـيرة كبنـاءِ المـدارس ، والمستشـفياتِ ، والملاجـئِ ، والوحداتِ الصحيةِ ، والمؤسسات الخيريةِ على اختلافِها ، وأرادَ بهـذا التنظيم ألا يجدَ الفقراءُ وذوى الحاجات غضاضة[٤] فى الإقبـال عليهـا ، والأخذ منها ؛ لأن عطاءَها ليس عطاءَ أفرادٍ ، وإنما هـو عطـاءُ مؤسسـة منظمة . لا يظهر فيها وجهُ المعطى ، ولا يتبعهُ مَنٌّ[٥] ولا أذى .

وقد امتدت هذه الجمعيةُ ، وتفرَّعـت ، وتشـعبت ، فكـانت جمعيـاتٍ هنا وهناكَ فى أنحاء القطر ، وكان لها سياساتها وعطاؤها ، كما كان لهـا مشروعاتُها التى تختلِفُ ما تختلفُ ، ولكنها تتفقُ فى أنها موجَّهَـةٌ للخـير العام ، خالصةٌ لله وللمجتمع .

---

(١) لم يأنس : لم يرتح ولم يطمئن

(٢) ليسهموا فيها : ليشاركوا فيها

(٣) تسدى : تعطى وتقدم

(٤) غضاضة : حرجا

(٥) منٌّ : حديث وتفضل بالنعمة .

وعاشت هذه الجمعياتُ حتى الآن ، وستعيشُ إن شاء اللّه تعالى فى الغدِ القريبِ والبعيدِ تحدّثُ بزعامة قاسم أمين ، وبآثارهِ فى إصلاح المجتمع وتنظيم شئونِه وحياته .

رابعًا : كان قاسمُ أمين من الروادِ الأوائل فى تأسيس « الجامعة الأهلية » وكانت هذه الجامعةُ أملاً وهدفًا . كان يرادُ بها استكمالُ الحلقةِ الأخيرةِ من تمصير التعليمِ ، حتى يدخلَ المصرىُّ مؤسساتِه ابتداءً من المدارس الابتدائيةِ حتى الجامعةِ .

وكان يرادُ بها أن تتحقق العزةُ المصريةُ ، والكرامةُ المصرية ، وألا يتحكم الأجانبُ فى التعليمِ العالى ، يُوَجِّهونه كما يشاءُون ، وتشاءُ أهدافهم ، ومنها الوضيعةُ والخبيثة[١] .

وكان يرادُ الانطلاقُ بالعلمِ والتعليمِ إلى غايتهِ ، وإلى الآفاقِ التى ينبَغى أن ينطَلقَ إليهَا .

كان ذلك سنة ١٩٠٨

وكان قاسمُ أمين ثانى اثنين ممن نادَوا بإنشاء هذه الجامعة ، وقد سبقه فى ذلك سعدُ زغلولَ .

وأرادَ اللّه أن يتحققَ أملُ « قاسم أمين » فى هذه الجامعةِ ، وفى إنشائِها ، ولكنه أراد أيضًا ألا ترى عينُه افتتاحَ هذه المؤسَّسَةِ العظيمة ، أو يحضرَ حفل هذا الافتتاحِ ؛ فقد مات فى ليلة الثالث والعشرين من أبريلَ سنة ١٩٠٨ ، وسنه خمس وأربعون سنة ، ولم تفتتح إلا بعد ثلاثة أشهر من موته .

---

(١) الخبيثة : الدنيئة الحقيرة .

الفصل العاشر

ختام فى كلمات

فى حياة قاسم أمين وجهادِه دروس لكل ذى عين بصيرةٍ ، وعقلٍ مفكّر ، وقلبٍ سليم . من هذه الدروس :

(١) الوفاءُ لوطنِه : فقد كان تركيَّ الجنس ، ولكنه وفَى غاية الوفاء لمصرَ التى وُلدَ على أرضِها ، وشرِب من نِيلها ، وعاشَ على خيراتِها ، وقضَى حياتَه بين أبنائِها .

(٢) النضالُ فى سبيلِ نهضةِ مصر ؛ فقد اعتنقَ مبدأ « التقدم » ، ودخلَ المجتمعَ المصرىَّ بهذا المبدأ ، وعاشَ يناضلُ[1] لمحاربةِ الفسادِ والتخلّف فى الشعب ، وليدفعه نَحوَ ما هو أصلحُ وأفضلُ .

(٢) تحريرُ المرأةِ : فقد كانَ من أنصارِها ، وأنصار دفعِها إلى الخروجِ من البيتِ والعملِ فى سبيل نفسِها وأسرتِها ووطنِها ، ومشاركةِ الرجل فى كفاحِه ، ولكن مع التزامِ الخلقِ ، والتمسكِ بالأدب ، والبعدِ عن التبرجِ[2] والتحللِ ، والانطلاق البهيمِى الوضيع .

(٤) الدفاعُ عن مصرَ وعن المرأة المسلمة ، وعن الإسلام : فقد وجد من الغربِ من يرمى أبناء وطنِه بالذّلةِ والمهانةِ والعبوديةِ ، والمرأة المسلمةَ بالتخلّفِ والانحطاطِ ، والإسلامَ بأنه السببُ وراءَ الجمود والتخاذل والبعدِ عن الحرية والانطلاقِ . . وكان فى مقدمة المتحاملين[3] عليه الدوق « داركور » فتجردَ « قاسم أمين » للدفاعِ

---

(١) يناضل : يجاهد .   (٢) التبرج : الخروج عن الحد فى التزين والتظاهر به .

(٣) المتحاملين عليه : من يتجنون عليه ، وينسبون إليه ما ليس به من نقائص .

القوىّ الصادقِ عن المصريين ، والمصريةِ المسلمة ، والإسلام القويم ، وخرج من هذا الدفاع ، وقد ظفِر بحبّ وطنه ، وأكثر أبنائه ، وتقديرهم ، والنظرِ إليه على أنه زعيم بارز من زعماء الإصلاح الاجتماعى فى مصر .

(٥) الثبات وقهر اليأس ؛ فقد لقِى أشد الطعناتِ من تحامل أبناء الغربِ المتعصبين ، ومن غفلة بعض أبناء مصرَ المتخلّفين ، ومرضَ أشدَّ المرض ، وكاد يتراجعُ ، ولكنه كان أقوى من التراجعِ واليأس ، فثَبت وناضلَ حتى كُتِبَ له النجاح .

(٦) الكفاحُ لإنشاء الجمعيةِ الخيريةِ الإسلامية ، والجامعةِ المصرية .. وهما من أجلِ أعماله وسيبقى اسمُ « قاسم أمين » وستبقى ذكرياتهُ خالدةً على الأيام ، باقيةً على الدهرِ ، مع ذكريات غيرِه من زعماءِ النهضة الحديثة وروّادِ الإصلاح فى مصر .

وباللّه التوفيق

يوسف الحمادى

مطبوعات مكتبة مصر

عظماء قهروا اليأس

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقى ـ الفجالة

ت : ٥٩٠٨٩٢٠



الثمن ١٠٠ قرش

دار مصر للطباعة

سعيد جودة السحار وشركاه